الفصل الأول

الإنسان في الأديان

إن الأديان التي سبقت الإسلام لم تحدد مركز الإنسان تحديدًا صحيحًا يليق بمركز الإنسانية، ولم يدع للإنسان الوسائل التي تمكنه بالشعور أنه عضو في المجتمع، مكلف بتأدية ما خلق له، فيقوم بما وضع على عاتقه من واجبات لقاء ما له من حقوق. وذلك كان سببًا قويًا لاختلاط الواجبات بالحقوق؛ وذلك لأن الأديان جعلت من الإنسان كائنًا مسيرًا غير مخير، فأصبح كآلة صماء تعمل دون أن يكون لها إرادة.

فالهنود يقولون أن الإنسان لا اختيار له في الحالة التي يولد عليها، لأنها مكتوبة عليه قبل ولادته من الأزل، وأنه محكوم عليه بالانفصال من عداد الخلق، ولن يكتب عليه شقاوة أو يكتب له نعيم قبل أن يذهب إلى عالم الفناء (النرفانا) المطلق من قيود الوعي.

والديانة الفارسية (المجوسية) تركت الإنسان ومصيره المصير عليه مدفوعًا بغير إرادته، فإن صادفه رضاء إله الخير وغمره بنوره يكون خيرًا مختارًا ينعم عليه بالحياة السعيدة في حياته الدنيا والآخرة، أما إذا التقى به إله الظلام وطواه في شره دون أن يكون له رأي في ذلك، مرغمًا على أن

يدخل الظلام فيشمله الشر ويطرد من النور، وتكتب عليه الشقاوة، ويدرج في عداد التعساء البائسين إلى أبد الآبدين دون ذنب جناه، أو جريرة فعلها، أو خطيئة أرتكبها. كما أن ذلك الإنسان الذي صادفة إله النور يستحيل عليه الدخول في الظلام مرة أخرى حتى ولو أرادت له شهوته وجره سوء فعله إلى الظلام، وذاك الذي زج به في الظلام، ظلمًا رغم إرادته لا يمكن أن يلمس النور والخير مهما حاول التقرب إلى إله النور، ومكتوب على كفاحه وجهاده في هذا السبيل الفشل الذريع.

أما اليونانيون فقد آمنوا بإله النقمة (نمسيس) ربة النقمة، التي لا تعترف باستقلال الإنسان استقلالاً ذاتيًا؛ فذنب غيره محسوب عليه، وهو محاسب بذنب غيره، فتحاسبه على ذنب جاره، وتؤاخذه بجريرة قريبه وبني جلدته، وبهذا يكون الإنسان مدفوعًا إلى مصير محتوم لا يملك لنفسه دفعًا لظلم نزل به، أو دفاعًا عن نفسه من اعتداء وقع عليه مثله كمثل السائمة.

أما الديانة المصرية القديمة فقد كرمت الإنسان تكريمًا إلا أنه كان تكريمًا محدودًا، فهي بالنسبة للأديان التي ذكرناها خير، فقد جعلت حساب الإنسان عن عمله فقط، حيث يقف بعد مماته أمام محكمة إيزيس وأزوريس التي تحاكم الموتى؛ لتحاسبه عما قدمت يداه، وإن كانت نتيجة الحساب متعلقة برضاء الكهنة، أو سخطهم على ذلك الإنسان.

وقد أخضع البابليون الإنسان لطالعه يوم خروجه من بطن أمه، فإن أشرق عليه نجم السعود فهو سعيد، وإن ظلله نجم منحوس فهو منحوس. والسعد والنحس يلازم كل منهما صاحبه طول حياته وبعد مماته، كما يجوز للمنجمين، والمشعوذين، والكهنة أن يتحكموا بالوساطة والشفاعة في مصير الإنسان؛ وذلك بتقديم القرابين، والذبائح، والمحرقات للأفلاك والنجوم. فمن قدم الرشوة والترضية للكاهن تكتب له السعادة في عداد من صادفه النجم السعد حتى ولو قابلهم طالع النحس من قبل، ومن لم يقدم ما فرض عليه كتب منحوسًا حتى ولو كان نجمه سعيدًا يوم ولادته.

والإسرائيليون يعتقدون أن هناك شعبًا اختاره الله، وأن هناك أناسًا رضى الله عنهم قبل أن يروا النور بأعينهم، كما أن هناك خلقًا كتبت عليهم اللعنة وحق عليهم العذاب، وكتبت عليهم الشقاوة.

فأما الذين شملتهم النعمة فأولئك من ذرية يعقوب، والذين عمتهم النقمة هم أبناء عيسو أخي يعقوب، لأن الله قد بارك يعقوب ولعن عيسو وهما ما يزالان جنينين في بطن أمهما، وبهذا قد حكم على الإنسان جنينًا وفي مهده بالبقاء في العذاب المهين حتى لو حاول التكفير عن الخطأ بالإيمان؛ وذلك لأن رب اليهود إله يتفقد ذنوب الآباء في الأبناء حتى الجيل الثالث والرابع.

ثم جاءت المسيحية بمثلها العليا، ولكن إرادة الكهنة جعلتها تتفق مع الأديان السابقة على حساب الإنسان بجريرة غيره، فقد جعلت الإنسان

محاسبًا بجريرة أصل خلقته؛ فربطت بين خطيئة آدم وذريته إلى يوم القيامة، مما أوقف الإنسان موقفًا لا يحسد عليه بسبب ما ورث من وزر أبيه الأول آدم، فما باله بوزر جده الذي ورثه أبوه، ثم ورث هو وزر أبيه وأوزار أجداده السابقين. هذا خلاف خطيئة آدم الباقية والتي لابد لها من كفارة، وليت الكفارة في مقدور الإنسان، فمقدرة الإنسان عاجزة عن أن تقدم ابنًا لله على عود الصليب، حتى لا يذهب بجريرة آدم أبناء الجنس البشري كله.

وما دامت هذه حياة الإنسان وقيمته الغير مستندة إلى شيء يذكر، فهو سليب الإرادة كشجرة اللباب لا ترتفع إلا إذا استندت على غيرها، أسير في أيدي الكهان، والنرفانا، وإله النور، وإله الشر، والنجم السعيد، والنجم المنحوس، تحت رحمة نمسيس ربة الثأر، منتظر على أحر من الحمر تقرير مصيره على يد محكمة إيزيس وأزوريس.

ولابد للإنسان من البحث عن سلالة طيبة حتى يكون مباركًا كسلالة يعقوب فيطمئن ويرتاح باله، لأنه مبارك من الله. والويل له إن كان من سلالة عيسو فهو ملعون، وما دام قد لعن دون ذنب جناه، فله الحرية أن يترك لنفسه هواها غير آبه بالقيم الإنسانية أو المثل العليا، لأنه مهما عمل من حسنات فهو مكتوب من أهل النار بسبب اللعنة التي نزلت على أصل سلالته وهو ما يزال نطفة أو علقة.

حتى لو كان هذا الإنسان من سلالة يعقوب المبارك، فماذا تنفعه البركة وهو من سلالة آدم الذي عصا وكان عصيانه وبالاً على ذريته، فأورث ذلك الخاطئ بنيه من بعده الذل، والهوان، والبعد عن رحمة الله.

إذن فالإنسان في الأديان قبل الإسلام كائن مبلبل الأفكار، مزعزع العقيدة، مهزوز الأركان، لا يملك لنفسه ضرًا أو نفعًا، وليس لحياته تبيدلاً أو تحويلاً، يعيش في هواجسه حتى يُقضى عليه في زوايا الخمول والنسيان. وبذلك يكون معطلاً عن القيام بدوره في محيط الإنسانية، يحيا بلا هدف، ويعيش بلا ضمير؛ ولذلك عاش جل أيامه عليه تكليف ولم يكن له أي وجه من أوجه التشريف، قضى كل أيامه تحت سيطرة الكهنة، والملوك، والقادة، يرسف في أغلال التحكم البغيض.

فالهنود قسموا الشعب إلى طبقات تتدرج إلى أسفل حتى تصل إلى درجة المنبوذين، وهذا مثل يضرب على باقي الديانات الوضعية. حتى الديانات السماوية، فقد كان كهنتها المتحكمين في الشعب فقسموه إلى فئتين: فئة مختارة، وفئة غير مختارة. ولو تطلعنا إلى الأناجيل لرأينا قصة امرأة سارت خلف المسيح تبغي البركة فحرمت عليها، لأنها ليست من خراف بني إسرائيل الضالة، ولأنها كانت سامرية أو أممية.

ظل الإنسان هكذا حتى جاء الإسلام فعرّفته نفسه، وتلا قول الله: (ولقد كرمنا بني آدم)، ومن هنا عرف الإنسان أنه خلق.